■ الباب الرابع

لـــورا

THE AUTOBIOGRAPHY OF

MALCOLM X

كان شورتي يأخذني إلى أجواء أخدودية مثيرة في مختلف شقق الفراريج والقطط حيث الأضواء الخافتة والموسيقى الحالمة وحيث الكل ينفخ ويعتصر ويثب . قابلت فراريج في جودة خمر مايو وقططاً وأعين لكل ما يحدث من حولهم .

اختيار كلمات هذه الفقرة متعمد بالطبع لاستعراض كلمات أكثر من اللغة العامية التي كان يستعملها كل شخص متفتح كنت أحترمه في تلك الأيام . وقبل أن يمضي أي وقت كنت أتحدث تلك اللغة كشخص قضى عمره كواحد منهم . وكغيري من مئات الألوف من الزنوج الذين نشأوا في الريف ثم قدموا للجيتو الأسود في الشمال قبلي وبعدي ، حزت على كل المكملات الشائعة لسكان الجيتو – بذلات الزوت ، الشعر المكوي كما وصفت ، العرَق ، الدخان ولفافات الحشيش – وكل ذلك لكي أخفي أصلي الريفي . هنالك سر واحد لم أبح به لأحد من شدة خجلي هو أنني لم أكن أستطيع الرقص .

لا أذكر بالضبط في أي ليلة تعلمت الرقص غير أن الرقص كان في ذلك الزمن أهم شيء في حفلات الشقق إلا أنني لا أشك في كيف ومتى تم تدشيني في رقصة اللندي . مع الكحول والحشيش ونشوتهما في الرأس والموسيقى تصرخ من الفونوغراف المحمول لم تأخذ غرائز أصلي الأفريقي وقتاً طويلاً قبل أن تنطلق . كل ما أذكره أنه في أثناء إحدى الحفلات في تلك الفترة وعندما كان الكل تقريباً يرقص جرتني فتاة إلى الحلبة – أي فتاة لم تكن تتخيل أن أيًا من الحاضرين لا يعرف الرقص –

وهكذا وجدت نفسي في حلبة الرقص .

كنت أدفع بالمناكب مع الجميع وفجأة وبدون مقدمات تمكنت من الرقص . كانت كأنما أدار أحدهم زر الإضاءة فشقت كل غرائزي الأفريقية المكبوتة طريقها إلى السطح وانطلقت. كنت وأنا في بيئة بيضاء في مدرسة ميسون أتوجس من الرقص وأؤمن أنه يتطلب نظاماً معيناً ونسقاً محدداً من الخطوات كما كان يرقص البيض . أما هنا ووسط أهلي غير المكبوتين فقد اكتشفت أن الأمر لا يتعدى ترك قدميك ويديك وجسدك يتفاعلون بعفوية بأية حركات تثيرها تلك الموسيقى في النفس . منذ ذلك اليوم لم تقام حفلة إلا وأنا فيها – أحياناً بدون أن أُدعى إليها – أرقص اللندي إلى أن يطير رأسي .

كنت دائماً أتعلم الأشياء الجديدة بسرعة وبدأت بسرعة أعوض ما فاتني لدرجة أن الفتيات صرن يسألنني أن أراقصهن . من جانبي كنت أرهقهن رقصاً وذلك ما حببهن في بشدة.

في مكان العمل في غرفة الرجال في روزلاند استيت لم أكن أطيق أن أبقى ساكناً . كان صوت خرقة تلميع الأحذية يفرقع مع نغمات موسيقى الفرق الكبيرة التي كانت تهز القاعة وكان الزبائن من البيض يضحكون عندما يحسون بقدمي تلمس أقدامهم وتنطلق فجأة في خطوة أو خطوتين . البيض محقون في اعتقادهم أن الزنوج راقصون بطبيعتهم . حتى الأطفال الصغار هم كذلك – ما عدا الزنوج الذين « اندمجوا » في المجتمع الأبيض مثلي لدرجة انكبتت معها غرائزهم. هل تعرفون لعبة « الجيجابو الراقص» التي تعبأ كالساعة ؟ حسناً ، كنت مثلها والموسيقى هي التي تحركني .

في ميعاد الحفل التالي للزنوج – والذي كان سيحيه ليونل هاميتون فيما أذكر – أخطرت مدير قاعة روزلاند أنني سأترك العمل . ضحكت إللا بصوت عال حينما أخبرتها بذلك وبأنني لا أستطيع أن أجد الوقت للرقص ومسح الأحذية معاً وقد سرها ذلك لأنها أصلاً لم تعجبها فكرة العمل في وظيفة وضيعة . وعندما أخبرت شورتي بذلك رد بأنه كان يعلم أنني سأكبر على تلك الوظيفة بسرعة .

كان شورتي يعرف الرقص إلا أنه لم يكن يهتم بحفلات الرقص الكبرى إذ أنه كان مولعاً بالجانب الموسيقي منها فقط . كان يتدرب على آلة الساكسفون وينصت إلى الإسطوانات وقد أدهشني كثيراً عدم ميله لحضور حفلات الفرق الكبرى والاستماع لموسيقاها. كان معبوده هو جوني هودجز عازف الألتوساكس في فرقة ديوك إلنجتون ولكنه كان يقول أن كثيراً من صغار الموسيقيين ليسوا إلا مجرد نسخة بالكربون من كبار العازفين . الشيء الوحيد الذي كان شورتي جاداً فيه هو موسيقاه واليوم الذي ستكون له فيه فرقته الصغيرة تعزف في أنحاء مدينة بوسطن .

في فجر اليوم التالي بعد أن تركت روزلاند حضرت إلى متجر الملابس الرجالية مبكراً وهناك اشتريت أخيراً بذلتي الزوت الثانية . راجع البائع حسابي ووجد أنه قد فاتني دفع قسط واحد فقط وأنني مصنف في درجة أ – ١ في سداد الديون فقلت أنني تركت العمل لتوي لكنه قال :إن ذلك لا يعني شيئاً ولا مانع من أن يفوتني قسطان إذا اضطررت لذلك . كان يعرف أنني سأسوي حسابي .

هذه المرة تفحصت كل البذلات الموجودة من مقاسي وأخيراً اخترت بذلتي الزوت رقم اثنين . كانت من الشركسين الرمادي بجاكتة كبيرة وطويلة وبنطال منتفخ عند الركبة وضيق عند الساقين لدرجة أنني خلعت حذائي قبل أن أرتدي البنطال وبتشجيع من البائع أخذت قميصاً آخراً وقبعة وحذاءاً جديداً من النوع الذي كان الموضة حينها: لونه برتقالي غامق، كعبه في خفة الورق مع عقدة في المقدمة . وبلغت التكلفة الكلية سبعين أو ثمانين دولاراً . كنت في ذلك اليوم طرباً إلى درجة أنني ذهبت وكويت شعري (كونك) في مكان حلاق لأول مرة وهذه المرة لم أتألم بشدة ، تماماً مثلما تنبأ شورتي .

في تلك الليلة خططت أن أدخل قاعة روزلاند في الوقت الذي يبدأ الناس فيه في الازدحام. في الردهة المكتظة رأيت بعضاً من حرابيق روكسبري وهم ينظرون منبهرين إلى بذلتي الزوت وبعض النساء الأنيقات ينظرن إليّ بإعجاب . ذهبت إلى غرفة الرجال لأتناول شيئاً من القنينة التي كانت في جيب معطفي . وهناك وجدت بديلي – شابا أسمر ضيق الوجه، جائع النظرة ، متوجساً وصل لتوه من مدينة كانساس . وعندما تعرف علي لم يستطع أن يخفي إعجابه وتعجبه فقلت له إن عليه أن يبقى هادئاً وأنه قريباً سيتفتح على الأحداث .

كان كل شيء على ما يرام عندما دخلت إلى قاعة الرقص ، فرقة هامبتون تعزف والأرضية اللامعة مكتظة بالناس ترقص في جنون . جررت فتاة لم أرها قبلاً وفي ثوان كنا نرقص بشدة ونبتسم لبعضنا . لم يكن هنالك ما هو أجمل من ذلك.

في السابق كنت أرقص اللندي في غرف الجلوس في الشقق الضيقة ، أما الآن فالمجال واسع . عندما سخنت وانفرجت أعصابي كنت أنتزع الفتيات من بين المئات اللائي كن بدون رفيق وكلهن يرقصن ببراعة وانطلقت أنا أرقص كالمتوحش . كانت موسيقى هامبتون تصرخ وأنا أدور بالفتيات في الرقص حتى تكاد تنوراتهن تطير . فتيات سود ، سمر ، صفر وحتى اثنتان من البيضاوات الموجودات . كنت أقذف بهن فوق حجري، فوق كتفي ، في الهواء . ومع أنني لم أكن قد بلغت السادسة عشرة من عمري إلا أنني كنت طويلاً وهيكلي فاخراً مثل ابن الواحد والعشرين كما كان جسمي أقوى من عمري . كنت أدور، أنقر بقدمي ، أقذف

بهن في الهواء وأتلقاهن عندما يسقطن وأؤدي كل الرقصات مثل رقصة « الصقر نافض الجناجين » و « الكنغر » و « الانفصال ».

بعد ذلك لم تفتني رقصة لندي في روزلاند طالما أنا في مدينة بوسطن .

كانت أعظم شريكة لي في الرقص من جميع النواحي فتاة تدعى لورا . قابلت لورا في وظيفتي الجديدة. كان سرور إللا بتركي مسح الأحذية عظيماً إلى درجة أنها بحثت لي عن عمل من النوع الذي ترضاه . على بعد مربعين من بيتها كان متجر الصيدلي تاونسند على وشك أن يستبدل عامل صنبور المياه الغازية الذي كان في طريقه للانضمام إلى الدراسة الجامعية . وعندما أخبرتني إللا بذلك لم ترق لي الفكرة . كانت تعلم أنني لا أتحمل أهالي الجبل ولكني لم أشأ أن أصارحها لأنها كانت ستجن ولم أكن أريد لذلك أن يحدث وهكذا ارتديت الجاكتة البيضاء وبدأت أعبئ المياه الغازية والبوظة وخليط الحليب والأشياء المماثلة من صنبور المياه الغازية لأولئك الزنوج المزهوين . كنت حينما أعود للمنزل كل ليلة بعد الثامنة تخاطبني إللا : « لكم أتمنى أن تتعرف على بعض الفتيات الطيبات من عمرك هنا في روكسبري » إلا أنني كنت أتضايق من هؤلاء المعدمين الذين يمشون ويتحدثون وكأنهم مليونيرات ، كبارهم وصغارهم . أشخاص مثل الخادمة التي تعمل وتقيم عند عائلة بيضاء من بيكون هيل (حي البيض الأغنياء في بوسطن) والتي تأتي داخلة بلهجة « أواه يا عزيزي » وتطلب أعواد الذرة من عند متجر البقال اليهودي. أو مثل المرأة التي تعمل في كافتيريا المستشفى والتي تحضر في يوم أجازتها لتجلس وحول عنقها فراء لتقول لصاحب المحل أنها «فني أغذية» وكلاهما يعرف أنها إنما تكذب . وحتى الصغار من عمري الذين كانت إللا تتحدث عنهم ، كان محل صنبور المياه الغازية أحد أماكن تجمعهم و في فترة قصيرة جعلوني أفكر في ترك العمل وهم يتحدثون بلهجتهم التي إذا كنت سمعتها من غير أن تراهم لما خمنت أنهم زنوج . لم أكن أستطيع الانتظار حتى تأتي الساعة الثامنة لأذهب إلى المنزل وآكل طعام أخوان الروح من مائدة إللا ثم أرتدي بذلتي الزوت وأخرج لزيارة منازل بعض الأصدقاء في وسط البلد لكي أرقص وأنتشي أو أعمل أي شيء يريح أعصابي بعيداً عن أراجوزات الجبل .

لم يمض وقت طويل قبل أن أشعر أن الاستمرار في ذلك العمل بساعاته الثمانية كل يوم مستحيل وقد كدت أن أتركه . أذكر أنني ذات ليلة فكرت في ترك العمل بعد أن كسبت من عشرة بنسات دفعتها في المراهنات الجانبية التي اشتركت فيها في المتجر وكانت أول مرة أكسب شيئاً. (نعم كان سكان الجبل يراهنون وحتى الزنوج المحترمون يراهنون.) كسبت ستين دولاراً ابتهجنا بها أنا وشورتي . وتمنيت لو أني كسبت من الدولار الذي كنت أشارك به ابن بلدي كل يوم وأدفع

له كل أسبوع لكنت حينها تركت العمل واشتريت عربة .

على أية حال كانت لورا تسكن في بيت في الركن المقابل من الشارع الذي فيه الصيدلية وبعد مدة قصيرة صرت كلما أراها قادمة أعد بوظة الموز التي كانت تحبها كثيراً . كانت لورا تحضر متأخرة كل يوم بعد الظهر من المدرسة . استمررت أقدم لها البوظة كل يوم بإلحاح لمدة خمسة أو ستة أسابيع قبل أن استقر في ذهني أنها ليست كالأخريات . كانت الوحيدة من فتيات الجبل التي كانت حينما تحضر تتصرف بود وعلى سجيتها . كانت دائماً تحمل معها كتاباً وتنهمك فيه لمدة ثلاثين دقيقة قبل أن تكمل بوظة الموز . كذلك بدأت ألاحظ نوع الكتب التي معها وكانت من النوع الجاد : لاتيني ، جبر ، وأشياء مثل ذلك . فكرت وأنا أراقبها أنني لم أقرأ ولا حتى صحيفة منذ أن تركت مدينة ميسون .

لورا . سمعت بعضهم يناديها بذلك الاسم عندما كانت في المتجر ولكنني لاحظت أن ذلك الشخص لا يعرفها جيداً لأن « هالو » هي كل ما قاله . كانت تجلس وحيدة ولا تتكلم مع أحد سوى كلمة « شكراً » قالتها لي مرة . صوت جميل . ناعم . هادئ . ولا كلمة أخرى أبداً . ولكنها لم تكن متغطرسة مثل الآخرين . لم تكن « بوسطونية سوداء » بل كانت ذاتها فقط .

أعجبني ذلك كثيراً وبعد مدة قصيرة بدأت التحدث إليها ، لا أدري عن أي موضوع بدأت ولكنها تجاوبت معي بود وبدأنا نتحدث . عرفت منها أنها طالبة بالمدرسة الثانوية ومن طلبة الامتياز وأن والديها انفصلا عندما كانت صغيرة وأن جدتها – التي كانت عجوزاً متقاعدة، متدينة وصعبة – قد ربتها . كانت لها صديقة واحدة هي فتاة زميلتها في المدرسة تسكن في كامبردج وكانتا تتحادثان من خلال الهاتف يومياً . وجدّتها لا تدعها تذهب للسينما دعك من الخروج مع الصبيان .

كانت لورا تحب المدرسة جدًّا وأخبرتني أنها تنوي أن تدخل الجامعة وأنها تحب علم الجبر وتخطط لأن تتخصص في العلوم . ولم تكن لورا لتتخيل أنها تكبرني بسنة وقد عرفت أنا ذلك بطريقة غير مباشرة لأنها كانت تتطلع إليّ وكأنما أنا خبير بأمور الدنيا أكثر منها وتلك حقيقة. بعض الأحيان عندما تروح كنت أشعر بالحسرة لأنني هجرت الكتب التي كنت أحبها حينما كنت في ميشجان .

صرت أتشوق لمقدمها كل يوم بعد المدرسة وأصبحت لا آخذ منها نقوداً وأعطيها بوظة إضافية ومن جانبها لم تخفِ إنها تستلطفني . ولم يمض وقت طويل قبل أن بدأت تترك القراءة عندما تحضر . كانت فقط تجلس وتلعق البوظة وتتحدث معي وبدأت تشجعني أن أكلمها عن نفسي . تأسفت حالماً ذكرت لها عرضاً أنني فكرت مرة أن أصبح محامياً

ولم تدع ذلك يمر بدون تعليق : « مالكوم ، ليس من سبب يمنعك من البدء من حيث أنت الآن لتصبح محامياً » . كانت لديها فكرة أن إلا ستساعدني بكل ما تستطيع . وحقيقة كانت إلا إذا سمعت أن أحد أعضاء أسرة لتل يود أن يمتهن أية مهنة – مدرس ، طبيب أقدام ، أية مهنة – تفعل أي شيء بوسعها لتساعده في تحقيق ذلك .

لم أذكر شورتي للورا قط لأني كنت أعلم أنها لم تكن لتفهمه أو تفهم أيًا من تلك المجموعة . وأنا متأكد أن أحدا لم يلمس لورا وأنها لم تذق خمراً ولم تكن لتعلم ما هي اللفافة . كانت مفاجأة كبيرة لي عندما ذكرت هي عرضاً ذات مرة أنها مغرمة برقص اللندي فسألتها كيف تمكنت من الخروج للرقص فردت أنها تعلمت رقصة اللندي في بيت والدي إحدى صديقاتها الزنجيات التي كانت قبلت لتوها في جامعة هارفارد .

كان الوقت وقت الإغلاق في المتجر حينما قلت لها أن كاونت باسي سيعزف تلك الليلة في الروزلاند وهل لها أن تصحبني ؟ كبرت عيناها وظننت أن علىّ أن أمسكها قبل أن تقع من الفرح . قالت إنها لم تزر الروزلاند أبداً من قبل ولكنها تتخيل ما تكون عليه من الداخل وأنها على استعداد أن تدفع كل ما تملك لتزورها إلا أن جدتها ستجن لو عرفت بذلك – قلت لها ربما تتمكن من ذلك في المستقبل .

ولكن في نفس يوم حفلة الرقص حضرت لورا بعد الظهر وكلها ابتهاج . همست لي أنها لم تكذب قط لجدتها من قبل ولكنها أخبرتها أن عليها أن تحضر بعض النشاطات المدرسية في تلك الأمسية . أخبرتني أنها ستذهب معي إذا كنت سأعيدها للبيت مبكراً وإذا كانت دعوتي مازالت قائمة . قلت لها أن علينا أن نذهب إلى البيت أولاً حتى أغير هندامي فترددت ثم وافقت وقبل أن نغادر خابرت إلا هاتفيًا أنني سأحضر ومعي فتاة في طريقنا إلى المرقص وبالرغم من أنني لم أفعل شيئاً من ذلك النوع قبلاً أخفت إلا دهشتها .

كنت أضحك لنفسي كثيراً بعد ذلك حينما أتذكر كيف ففرت إلا فاها حينما رأتنا – أنا مع فتاة من الجبل ! كانت لورا ودودة وصادقة حينما قدمتها لإلا التي غمرتها بالإعجاب. تركتهن يتحادثن وصعدت إلى غرفتي لأرتدي ملابسي . أذكر أنني غيرت رأيي وبدلاً من أن أرتدي بذلة الشاركسين الزوت الرمادية التي كنت قررت ارتداءها مسبقاً ، ارتديت بذلتي الزوت الأولى الزراقاء . كنت أدرك أن علىّ أن أرتدي أكثر هندام محافظ عندي .

كانتا كأصدقاء قدامى حينما نزلت إليهما ووجدت أن إلا أعدت لها شاياً . كانت نظرة إلا المعترضة تكاد تنزع بذلتي الزوت من جسمي ولكنني متأكد أنها حمدت الله إنني لم أرتد الشاركسين . معرفتي بإلا تجعلني متأكداً أنها استخلصت من لورا تاريخ حياتها وأنها قررت في نفسها أنني يجب أن أتزوج لورا –

وكنت أبتسم داخل عربة الأجرة ، طول الطريق إلى روزلاند لأنني برهنت لإلا أن بإمكاني أن أصادق فتيات الجبل الراقيات إذا شئت .

كانت عيون لورا واسعة من الفرحة وأخبرتني ألا أحد من معارفها يعرف جدتها التي لم تكن تذهب إلى أي مكان سوى الكنيسة ، لذا لم يكن هنالك خوف من أن جدتها ستعرف . الشخص الوحيد الذي أخبرته لورا كان صديقتها التي شاركتها الفرحة .

ثم إذا بنا في ردهة روزلاند المزدحمة وها أنا أقابل بالتحايا والابتسامات والأيدي التي تلوح لي . كانوا ينادونني «يا صديقي !» « هاي ، يا أحمر » وأرد عليهم بـ : « دادي — أو ».

لم نرقص سويًا من قبل إلا أن ذلك لم يكن يمثل إشكالاً البتة . فأي شخصين يستطيعان الرقص الفردي يستطيعان الرقص معا . بدأنا الرقص في الأرضية وسط جمع كبير به أكثر من ثنائي وكنا في منتصف الرقص عندما أدركت كيف كانت ترقص .

إذا كنت رقصت اللندي مرة فستعرف ما أتحدث عنه . مع أغلب الفتيات يرقص الواحد في مواجهتهن — تدور وتتخطى وتميل وبأي ذراع تقود تكون تلك الذراع شبه منحنية إلى الخارج وتعطي يديك دفعة صغيرة ، شدة صغيرة ، تلمس خصرها ، كتفها ، ذراعها . وإذا كانت شريكة الرقص غير قديرة تشعر بثقلها وبطئها . أما إذا كانت راقصة قديرة فكل ما تحتاجه هو أن تقودها بالإيماء فقط . يقادنَّ بلا مجهود حتى والفتاة تقفز في الهواء وتؤدي أنت حركاتك على الأرض ثم تتلقاها وهي تهبط وعندما تنضم إليك على الأرضية تكون خطواتكما في توافق وانسجام .

لقد رقصت مع فتيات قديرات كثيرات ولكنني اكتشفت فجأة وأنا أرقص مع لورا أنني فقدت الوزن . لم أفكر بحركة إلا واستجابت راقصة . على أية حال كانت ترقص فقط فوق ، تحت، تحت ذراعي ، تطير في الهواء وأنا أختبر طريقتها في الرقص وألاحظ ما تعمله بقدميها . بإمكاني أن أغمض عيني الآن وأراها في مخيلتي وكأنما هي راقصة باليه — يا للجمال ! كانت خفيفة كالظل . لو سألوني من هي شريكتي المثالية في الرقص كنت سأقول أنها شخص في خفة لورا مع قوة تجعلها تواصل الرقص إلى أن ينتهي العرض . لكني كنت أعلم أن لورا ليست لديها كل تلك القوة .

في هارلم وبعد ذلك بسنوات علمني صديق لي يدعى « سامي القواد » شيئاً تمنيت لو كنت أعرفه عندما كنت أراقص لورا لأبحث عنه في وجهها . أعلن سامي أن العلامة التي لا تخطئ في معرفة شخصية المرأة الباطنية الحقيقية يمكن اكتشافها من الرقص . وإذا تذكرنا عدد النساء اللائي انتقاهن سامي وحولهن إلى بغايا فسندرك أنه خبير النساء . أقسم سامي أن المرأة ، أية امرأة ، تنغمس مندفعة بشدة في الرقص

ستكشف عن شخصيتها في تعابير وجهها أو عما يمكن أن تكون مستقبلاً .

لا أقصد أن صورة فتاة منحلة ظهرت على وجه لورا وهي ترقص – لكن الحياة قست عليها ابتداء بمقابلتي . كل ما أود أن أقوله أنني إذا كنت وقتها في خبرة سامي فلربما تعرفت إلى أشياء في داخلها ستتحقق وتصدم جدتها .

بعد أن ينقضي ثلث الأمسية تقريباً يأتي دور المغنيين والعازفين الكبار وتأتي ساعة الاستعراض التي يبقى فيها على الأرضية فقط أقدر الراقصين للتنافس وإزاحة بعضهم البعض من الحلبة . يقف كل الراقصين الآخرين في شكل نصف دائرة والفرقة في الجانب الآخر . أما الفتيات اللائي سيشتركن في المنافسة فينسحبن جانباً ويضعن أحذية قماش على أقدامهن بدلاً من الكعب العالي لأن الكعب العالي يعوقهن من المنافسة . كانت دائماً توجد أربع أو خمس فتيات بدون رفيق يبحثن عن فتى قدير في رقصة اللندي يشاركهن .

نفخ كاونت باسي معلناً بداية ساعة الاستعراض وتحرك الآخرون خارج الحلبة للوقوف في مكان استراتيجي للفرجة قبل أن يبدأوا يهتفون لراقصيهم المفضلين . « كل شيء تمام يا أحمر ! » ، « تقدم واهزمهم يا أحمر ! » وفجأة جرت نحوي فتاة بدون رفيق كنت رقصت معها تدعى مامي بيفيل تعمل نادلة وترقص بوحشية بينما لورا واقفة قبالي . لم أدر ماذا أفعل حينما بدأت لورا تنسحب نحو الجمهور وهي ترمقني بنظرة .

بدأت موسيقى كاونت تصرخ وخطفت مامي وبدأنا الرقص . كانت ضخمة قوية وخشنة ترقص مثل حصان مندفع . مازلت أذكر الليلة التي أصبحت فيها مامي من الراقصات المفضلات في ساعة الاستعراض في روزلاند . كانت الموسيقى تتفجر حينما قذفت بحذائها وبدأت ترقص حافية وهي تصرخ وجسدها يهتز وكأنما هي في حمى غابة أفريقية ثم كشفت عن رقص وهي تصرخ مع كل خطوة حتى أن زميلها في الرقص كاد يفقد السيطرة عليها . الجمهور عادة يحب أي نوع من رقص اللندي المفعم بالإثارة والحركة وذلك ما جعل مامي معروفة لديه .

بدأت أقتادها كالحصان بالطريقة التي تحبها وعندما انتهت النمرة وتركنا الأرضية كنا نسبح في العرق والناس تصيح وتدق الأرض بأقدامها من حولنا .

أذكر أنني غادرت مبكراً مع لورا لأوصلها إلى منزلها في الموعد . كانت هادئة طوال الطريق ولم تكن تقل شيئاً لمدة أسبوع بعد ذلك حينما تحضر إلى متجر الصيدلي . حتى في ذلك الوقت كنت أعرف عن النساء ما فيه الكفاية الشيء الذي منعني من أن أضغط عليها لتتكلم عندما تكون تفكر بشيء ما . سيخبرنك في الوقت الذي يناسبهن .

صارت إلا كلما تراني تغمرني بالأسئلة : « متى سأرى أنا لورا ثانيا ؟ هل

سأحضرها للمنزل مرة أخرى ؟ يا لها من فتاة مهذبة ! » لقد قررت لي من سأتزوج لكنني لم أكن أفكر بتلك الطريقة ولا في تلك الفتاة وعلى ذكر المواضيع الشخصية فقد كان بالي فقط في أناقتي وارتداء بذلة الزوت بعد العمل والجري إلى وسط البلد للاختلاط مع شورتي والآخرين – والفتيات اللائي يعرفون – مليون ميل بعيداً عن الجبل وأهله .

لم أكن أفكر في لورا عندما حضرت إليّ في دكان الصيدلي وطلبت مني أن آخذها إلى حفل الرقص القادم في روزلاند . كان ديوك النجتون سيعزف هنالك وكانت في قمة الإثارة . ولم تكن لدى أدنى فكرة عما سيحدث .

طلبت مني أن أحضر لأخذها من منزلها في هذه المرة وبالرغم من أنني لم أكن أود مقابلة جدتها العجوز إلا أنني ذهبت . أجابت جدتها على جرس الباب وكانت امرأة سوداء محافظة تملأ التجاعيد وجهها وشعرها أشيب منكوش . فتحت لي الباب لأدخل بدون أن تتفوه بأية كلمة ولا حتى « أدخل يا كلب ! » في غرفة الجلوس العتيقة كانت هنالك صور قديمة للمسيح وسجاد منسوج بالدعوات وتماثيل المسيح مصلوباً وأشياء دينية أخرى على الموقد والرف والطاولات والحائط وفي كل مكان .

بما أن السيدة العجوز لم تتحدث إليّ فلم أتحدث أنا بدوري إليها . إنني الآن أتعاطف معها كلية بالطبع فماذا كان يمكن أن تقول لشخص بهيئتي تلك ، بذلة زوت وشعر مكوي وحذاء برتقالي اللون . ربما كانت قد أسدت لنا جميلاً لو صرخت منادية الشرطة . وإذا طرق بابنا اليوم شخص في مثل حالتي تلك طالباً مقابلة ابنتي فإنني سأنفجر فيه غضباً .

هرعت لورا إلى الغرفة وهي ترتجف في معطفها وكان واضحاً لي أنها مستاءة وغاضبة ومحرجة . في داخل عربة الأجرة بدأت تبكي . كانت قد كرهت الكذب وقررت أن تخبر جدتها بحقيقة وجهتها ودارت معركة من الصراخ بينهما فيها أخبرت لورا جدتها أنها (لورا) ستذهب إلى أي مكان تحب وفي أي وقت تشاء وإلا فإنها ستترك المدرسة وتجد لنفسها عملاً وتسكن في مكان آخر لوحدها . هاجت الجدة لذلك ولكن لورا خرجت بلا مبالاة .

في روزلاند رقصنا في بداية الحفل مع بعضنا ومع شركاء آخرين إلى أن أفتتح ديوك ساعة الاستعراض .

كنت أعلم ولورا تعلم أنه ليس بمقدورها منافسة فتيات ساعة الاستعراض ولكنها أخبرتني أنها تود أن تنافس . في لحظة كانت بين الفتيات اللائي ينسحبن جانباً لتغيير أحذيتهن. هززت رأسي بالرفض حينما جرت نحوي اثنتان من الفتيات

اللائي لا رفيق لهن . وكالعادة بدأ الجمهور يصفق ويهتف مع ضربات الموسيقى : «تقدم ، يا أصهب ، تقدم ! » تركزت الأضواء علينا وذلك بسبب أسلوب لورا في الرقص الذي يشبه رقص الباليه . لم يكونوا قد رأوا الرشاقة وخفة الريش التي عكستها في أدائها لرقصة اللندي – أسلوب جديد تماماً أمام جمهور ذواقة . رفعت أنا الحرارة وكانت أقدام لورا تطير في الجو – كنت أقذفها في الهواء ، تحت ، جانباً ، حولي ، خلفي ، فوق مرة أخرى ، تحت وهي تدور .

كان الضوء مركزاً علينا أغلب الوقت. التفت لألحظ الثنائيات الأربعة أو الخمسة الأخرى – فتيات قويات متوحشات تفر وتكر كالحيوانات . ولكن لورا الصغيرة أوحت لي بقمم جديدة ، كان شعرها يغمر وجهها وهي تتصبب عرقاً ولم أصدق قوة جسدها والجمهور يصرخ ويدق الأرض بقدميه . لقد اكتشفوا نجماً جديداً وكان حائط من الصراخ حولنا . شعرت بها تتعب وكانت قد بدأت ترقص كمحارب على قدميه وتعثرنا نحو الجمهور . كانت موسيقى الفرقة ما زالت تتفجر فاضطررت أن أحملها جزئيًّا وهي تتنفس بصعوبة . صفق لها بعض العازفين وحتى ديوك النجتون قام بنصف انحناءة من مقعده أمام البيانو .

إذا أحب جمهور ساعة الاستعراض أداءك فإنه يحيط بك عندما تنتهي ويحتضنك الناس ويربتون على ظهرك بشدة ويكادون يهرسونك كفريق كسب الجولة . التف بعض من الجمهور حول لورا وساعدوها على الوقوف أما أنا فكانوا يربتون على ظهري بشدة حينما وقعت عيناي على عيني هذه الشقراء الجميلة ... لم أكن رأيتها أبداً بين الفتيات البيضاوات اللائي كن يحضرن إلى حفلات روزلاند الراقصة للسود . كانت تنظر إليّ من فوق لتحت .

أن تكون لك فتاة بيضاء ليست بغيًّا معروفة في ذلك الوقت كان يعطي الزنجي مرتبة مميزة في روكسبري وفي كل جيتو أسود في أمريكا. وهذه التي كانت واقفة تحدق في كانت أجمل من أن تصدق . شعرها على كتفيها وقدها ممتاز وملابسها لابد قد كلفت أحدهم كثيراً .

إنني أخجل من نفسي وأنا أعترف بأنني كنت قد نسيت لورا حينما خلصت نورا نفسها من الجمهور وجرت نحوي وعيناها جاحظتان – ثم وقفت . أظن أنها رأت ما رأت في تعابير وجه تلك الفتاة وتعابير وجهي حينما قمنا لنرقص أنا وتلك الفتاة . فلنسمها صوفيا.

لم تكن راقصة ماهرة ، على الأقل بمقاييس الزنوج ولكن ماذا يهمني ذلك . كنت أشعر بعيون الآخرين من حولنا تحدق فينا . تحادثنا أثناء الرقص وقلت لها إنها راقصة ماهرة وسألتها إين تعلمت ذلك . كنت أحاول أن أعرف لماذا هي هنالك

. أغلب الفتيات البيضاوات يحضرن إلى مراقص السود لأسباب أعلمها ولكنك نادرًا ما تجد واحدة مثلها هنالك . كانت إجاباتها عائمة لكننا اتفقنا أثناء الرقص أنني سآخذ لورا إلى منزلها مبكراً وأعود بسرعة في عربة أجرة كما أنها سألتني إن كنت أود أن أركب معها عربتها للتنزه بعد ذلك . شعرت بأنني محظوظ جداً .

أخذت لورا لمنزلها وعدت إلى الروزلاند في ساعة واحدة فقط وكانت صوفيا في انتظاري في الخارج . مشينا مسافة خمسة مربعات حيث كانت عربتها المكشوفة . ركبنا العربة واتجهنا خارج مدينة بوسطن حيث دلفت في شارع جانبي ثم إلى طريق مهجور وأوقفت كل شيء ما عدا مذياع السيارة . في ستة الشهور التالية كانت صوفيا تحضر وتأخذني في عربتها وكنت آخذها إلى المراقص والحانات المختلفة في روكسبري وتقود العربة إلى كل مكان . في بعض الأحيان كنا نسهر حتى الفجر حينما توصلني أمام بيت إللا.

كنت أمشي معها متباهياً وكان الزنوج الرجال يحبونها وهي من جانبها تحب كل الزنوج . كنا نتقابل ليلتين أو ثلاثاً كل أسبوع وقد اعترفت لي أنها تخرج أيضاً مع الرجال البيض ولكن ذلك مجرد تعمية للأبصار إذ أقسمت أنه لا اهتمام عندها برجل أبيض .

كثيراً ما سألت نفسي ولكني لم أجد إجابة لسبب اقترابها مني بتلك الجرأة عندما تقابلنا أول مرة . كنت أظن أن ذلك ربما بسبب تجربة سابقة لها مع رجل زنجي ، لكنني لم أسألها أبداً ومن جانبها لم تذكر لي السبب قط . لا تسأل امرأة عن تجاربها مع الرجال لأنها إما أن تكذب عليك وتبقى جاهلاً أو تقول لك الحقيقة فيسوءك ما تقول .

المهم أنها كانت مسلوبة اللب بي فيما يبدو . لم أعد أقابل شورتي إلا قليلاً وحينما كنت أقابله مع الجوقة كان يمزح قائلا: « يا رجل ، لقد كنت أمشط الأوشاب من شعر ابن بلدي وها هو الآن وله فروج من بيكون هيل .» في الحق لقد ارتفع شورتي مرتبة لأن لتلميذه صديقة بيضاء . وعندما قدمتها له احتضنته وكأنها أخته مما هز شورتي . كان أحسن ما لقى حتى ذلك الوقت لا يتعدى بغايا بيض أو بعض النساء البيضاوات الفقيرات اللائي « اكتشفن » الزنوج وهن يعملن في المصانع القريبة .

بدأت مرتبتي تزيد عندما صرت أشاهد وأنا أتجول مع صوفيا في أنحاء المدينة المختلفة . قبل ذلك كنت مجرد واحد من الشباب أصحاب الشعور المكوية الذين يتمخطرون في بذلات الزوت ، ولكني الآن وأنا بصحبة واحدة من أروع الفتيات البيضاوات اللائي وطئت أقدامهن تلك الحانات والبارات وهي تعطيني النقود التي

أصرف ، أصبح أفذاذ « الزعران » السود وكبار « المعلمين » من مديري الكازينوهات وكبار المغامرين والعاملين في المراهنات يتوددون إليّ . صاروا يربتون على ظهري ويدعونني إلى الجلوس وتناول كأس معهم وينادونني رد (يا أصهب!) طبعاً كنت أعرف غرضهم من ذلك معرفتي لاسمي : كانوا يريدون أن يسرقوا مني امرأتي البيضاء الرائعة .

في الجيتو كما في الضواحي الراقية كان الصراع من أجل الظهور بمظهر تحسد عليه يميزك عن الآخرين هو نفس الصراع . كنت في السادسة عشرة من عمري ولم تكن لي نقود أشتري بها كلاديلاكاً ولكن كان لها « مطاطها » الخاص الرفيع كما كنا نسمي العربات في تلك الأيام . كانت لي وذلك أفضل بكثير .

لم تعد لورا إلى الصيدلية بعد ذلك طالما أنا أعمل هنالك وفي المرة التي رأيتها فيها بعد ذلك كانت حطام امرأة ذات سمعة سيئة حول روكسبري ، تدخل وتخرج من السجن . أكملت دراستها الثانوية ولكنها كانت قد بدأت تسير في طريق معوج . تحدت جدتها وبدأت تخرج وتساهر ليلاً وتشرب الخمر الشيء الذي قادها إلى المخدرات ثم إلى أن تبيع جسدها للرجال. وعندما بدأت تكره الرجال الذين يشترون جسدها تحولت إلى سحاقية . لعدة سنوات كنت أخجل من نفسي وألومها لكل ما حدث للورا وزاد من تأنيب ضميري أنني عاملتها كذلك من أجل فتاة بيضاء . العذر الوحيد الذي يمكن أن أجده لنفسي هو أنني كنت أخرس وأطرش وأعمى مثل كثير من أخوتي السود اليوم .

على أية حال لم يمض وقت طويل على تعرفي إلى صوفيا قبل أن تكتشف إلا الحقيقة عندما رأتني من النافذة في فجر أحد الأيام وأنا أنزل من عربة صوفيا . لم يكن غريبًا بعد ذلك أن تعاملني وكأنني أفعى سامة .

في حوالي ذلك الوقت ترك ابن عم شورتي الشقة ليقيم مع الفتاة التي جن بها وتكفلت صوفيا بدفع نصف الإيجار كي أسكن أنا مع شورتي ثم تركت العمل في الصيدلية ووجدت عملاً جديداً . صرت أعمل كصبي مساعد في مطعم باركر هاوس في بوسطن . كنت أرتدي معطفي الأبيض المنشي في قاعة الطعام وأحمل الأطباق والملاعق والشوك المتسخة التي يضعها النادل على صينية المونيا كبيرة وأحملها عائداً إلى ماكينة غسل الصحون في المطبخ .

بعد أسابيع وفي صباح يوم الأحد كنت أسرع إلى العمل متوقعاً أن أفصل منه لأنني وصلت متأخراً . عندما وصلت وجدت كل طاقم المطعم مشغولاً عني وفي جلبة : قصفت الطائرات اليابانية لتوها مكاناً يدعى بيرل هارير .